فتاة لعوب

ميرا الكعبي ❖

فتاةٌ لعوبٌ جاءت لتكفّر عني الذنوب

غانيةٌ تستهوي اللعبَ بالقلوب دُمْيتُها رجلٌ أعزل في الحب أَغْرَتْ بي وهي ترتدي ثوبَ القداسة والطهر. جاءت مع صوت المؤذّن فجرًا داعيًا إلى الصلاة لتنصحني بالحجّ والصوم والصلاة، ولتحدّثني بما يجوز وبما لا يجوز، وبأنّ شربَ النبيذ في شرعها حرامٌ، ومصاحبةَ النساء شرٌّ، وأنه لا بد أن أستغفرَ في اليوم عشراتِ المرات ليلاً ونهارًا، وأسبِّحَ بحمده بكرةً وأصيلاً. وجاءت لتعلّمني قائمةً طويلةً من المعبودات والعبادات والباقيات الصالحات، كي أصبحَ في نظرها رجلاً صالحًا، وأكفّرَ عن ذنوبي

وكيف أكفّر عن ذنوبي، وهي أكبرُها؟

خَدَعَتْني، وقد كنتُ أظنّ بأنّني أنا مَنْ يخدعها.

أغوتني، وقد كنتُ أحسبُ أنّي رجلٌ لا تقاومني النساءُ.

فمن أنتِ يا هذه التي جئتِ في منتصف أربعيناتي كي تقتليني ثم تَذْريني زاهدًا في النساء، ناسكًا متعبدًا في محراب الصلاة، أدعو مَنْ كنتُ قد أنكرتُه بأن يعيدَها إليّ؟!

كنتُ أسخر من عفويتها، من بساطتها، من أحلامها، من أفكارها وأمنياتها الصغيرة، وأتساءل: «كيف ستهدين بكلّ هذه البساطة رجلاً ملحدًا مثلي إلى الإيمان؟!» لكنّ الشيطانَ الذي في داخلي استعذَبَ حضورَها، وأغواني بإغوائها والتمتُّع بها.

ظننتُكِ سهلةَ المنال، وأنا رجلٌ لا يَصْعب عليَّ الإغواء لكنَّكِ، أيّتها اللعوب، أغويْتِني بثوب الإيمان قبل أن أغويَكِ بنبيذِ الشيطان

تأتيني بكامل الاحتشام والاحتجاب، لتعلّمني بخبثٍ مبادئَ الصلاة وتلاوةِ القرآن! وبصوتٍ يوحي برقصة التعرّي، تتلو الصلوات والابتهالات، وتَخْتم الصلاةَ بالدعاء لي بالهداية، وبأن يرزقَها اللهُ الثوابَ، ثم تعلّمني قراءة ما تيسّر من القرآن. وبعدها تعود لتهاتفني فجرًا؛ توقظني من حلمٍ كنتُ أعانقُها فيه. يتكسّر اسمي على شفتيْها بصوتٍ خَفوتٍ يثير رغبةً لذيذةً تُشْعل في جسدي نارًا. تقول لي «استيقظْ.. إنّه موعدُ صلاة الفجر!»

❖ ❖ ❖

هل عرفتُكِ؟

كاذبٌ من يدّعي معرفتَكِ أيّتها المشاكسةُ المشاغبة. تلك البراءة التي تتوارى بها نظراتُكِ، وادّعاؤكِ الجهلَ وأنّكِ بلا زورق، في حين كنتِ تُمْعنين في الإبحار بي بعيدًا عن كلّ الشطآن، وتذريني مقيَّدَ الإرادة، مسلوبَ الفؤاد، عرضةً لموج البحر وعاصفة التيار. أخبريني أيّتها الغانية، مَنْ آخرُ ضحاياكِ؟

كم قلبًا فَتَكْتِ به وأنتِ تقومين بأعمالك الخيرية ونشاطاتك الدعوية؟

أنا رجلٌ نسائي متعدداتٌ. أنا رجل مزاجيُّ الهوى ومتقلّب الرغبات لكنّكِ أحرقتِ فيّ الرغبةَ، وفتكتِ برجولتي حوّلْتِني إلى ناسكٍ متعبّدٍ في صومعتك كنتُ أنكرتُ وجودَ الله، واستبحتُ كلَّ الملذات، فمن أين جئتِ أنتِ لتمنعني عني المُنْكرات؟

أخبرتُك أنّني، في سبيلك، على استعدادٍ للتخلّي عن كل نزواتي، والتكفير عن خطاياي، وفي محرابك أصلّي، وعلى أنفاسكِ وبرحيقِ شفتيْكِ أُمْسِكُ وأُفْطِر، وستكونين المبتدأ وستكونين المنتهى ستكونين همسَ الفجر وارتعاشةَ قطرات المطر ستكونين في خيالي، في حلمي، في صحوي، ومنامي ستكونين في سرّي وعلانيتي، في خلجات الروح وروح الروح. ستكونين البيتَ، وستكونين السكنَ ستكونين الخريفَ، وستكونين الربيعَ، وجميعَ فصولِ حياتي. أحبُّكِ قلتُ، أحبكُ، وسأولَدُ من أجلكِ رجلاً بلا ماضٍ، رجلاً بلا إثمٍ ولا خطيئة

❖ - كاتبةٌ شابّةٌ من السعودية تَدْرس الحقوقَ في بوسطن

أصبحتُ رجلاً مجنونًا في هواها يغار قلبي من اللون الأسود في عينيها، ومن ارتعاشة الأهداب في مقلتيها كم تغار شفتي من وميضِ قبلة على خديْها، فتستفيق فيّ رغباتٌ مجنونةٌ في التحديق بها أبدَ الدهر جائعتان هما العينان اللتان لم تبصرا في الهوى حسنًا كحسنها سبحان الذي خلقها! «سبحان التي أرتني اللهَ في منتصف الظهيرة!» كم ترتعش شفتاي حين تعانقان حروفَ اسمها، وكم ترغبان في تقبيل الهواء الذي يحيط بها!

❖ ❖ ❖

حضورُكِ أشعلَ في جسدي الحرائقَ في حضورك تعلَّم قلبي أن يَدْخل حالاتِ الإغماء وحالاتِ الطوارئ كنتُ أوقِّت حضورَكِ مع موعد الصلوات، فأصبحتِ أنتِ صلاتي ونُسْكي ومحياي ومماتي. صرتُ أستعذب صوتَ المنادي إذ ينادي بالصلاة، لأنّه يذكِّرني بحضورك، يذكِّرني بدعائك، يذكِّرني بهاتفك «قم . للصلاة»!

فكيف بي وقد أصبحتُ، من دون أن أدري، أوقِّتُ ساعةَ المنبّه على موعد صلاة الفجر لأنّه الموعدُ الذي يجيء بكِ إليّ، وأنا لا أدري أنّ قلبي كان يفزّ من تلقاء نفسه ليقول لي «انهضْ سوف تتصل بك»؟ صرتُ أوقِّت ساعةَ المنبّه، بلا وعي منِّي، على موعد صلاة الفجر، وأنا لا أدري أنّ هناك منبِّهًا آخرَ في قلبي، يجعل الروحَ ترتعش كطيرٍ في حضرة الصيّاد لكي أسمع صوتَها، كي أتوضّأ بأنفاسها، وأصلِّي بوصالها فتاة لعوب، من أباح لها اللعبَ بالقلوب؟

تحدِّثني عن أمنياتها حينًا حدّثتني بأنّها تتمنّى من الله أن يهديَني، وبأنّ أمنيتَها في الحياة أن تهديَ إلى الله الرجالَ الضّالّين مثلي، وبأنّها تفكّر في مشروعٍ خيريّ للدعوة إلى الله حينما تنتهي من دعوتي، وذلك عبر الاستفادة من تجربتها معي في تعليم مبادئ الإيمان والإحسان! فتصاعدت الدماءُ فيّ، وشعرتُ بالغيرة من فكرةِ أنّها ستهدي رجالاً آخرين غيري!

تعلَّق قلبي بها تعلَّق قلبي بطفلةٍ حنبليّة، كلما لاعبتُها الشطرنجَ ساومتْني بكلّ بيدقٍ على صوم شهريْن وصلاةِ ركعتيْن بعد منتصف الليل! فقلتُ أداعبها: «ومتى يحين لنا أن نستبدلَ الصلوات بالقبلات؟!» تحمرّ خفرًا وخجلاً، ثم تَنْظر لي بما يُشْبه العتابَ والدلال «ويحك.. ألا تَعْلم أنّه لا تجوز لك مصافحةُ النساء، فكيف بالقبلات؟!» باغتُّها بسهامِ عشقي وقلتُ «لكنّني أحلم بكِ كلَّ ليلة، وأقبِّلُكِ في أحلامي تسعًا وتسعين قبلةً . ألم تشعرين؟!» نظرتْ إليَّ نظرتَها المكابرة: «تحلم؟. أحلم. سأغمض عينيَّ كيلا أراك! كأنك في الحلم قد قبّلتني!» فتضحك ضحكةً تشبه كركرةَ الأطفال في المهد، يشوبها الكثيرُ من الإغواء

قالت لي ذاتَ مساء بغنجٍ وبغضب: «متى ستؤمن؟» فقلت. «﴿ أنك لا تهدي مَنْ أحببتَ ولكنَّ اللهَ يهدي من يشاء ﴾، ألا يكفيكِ أنّني آمنتُ بك؟» فقالت ويحك . استغفرِ اللهَ، هذا شركٌ!» فقلت لها: «لقد ركّعتُ قلبي تحت قدميْك سألتُكِ أن تكوني معبودتي، وبأنّي لك أصلِّي، وبأنّي أريدك لي. بأيّ اسم، بأيّ شرع، سأكون لك.. فهل تكونين لي؟» ضحكتْ ضحكتَها اللعوب، ثم فكّرْت، ثم عبستْ، ثم قالت «لكنّكَ ملحد، ولا تؤمن بالله، كما لا تؤمن بالصوم والصلاة!» فقلتُ لها «ولم لا؟ أليس دينك يعلِّمُك ﴿ولكم دينُكُمْ ولي دين﴾»؟، ردّت «أنا لا أستطيع أن أتزوّج برجلٍ يؤمن بأن أصلَه قرد، إذ بماذا أجيب أطفالي حينما يتساءلون عن أصل والدهم؟ أأقول لهم إنّه قرد؟!»

❖ ❖ ❖

عاودتُ الاتصالَ بعد أيام، وكلّي أملٌ أن أتشبّث ببقايا حضورها، كي أذكِّرها بموعد درس التجويد وتلاوة القرآن فأجابت بأنها مشغولة جدّاً، وجدولها مزدحم، وعليَّ أن أتصل بها لاحقًا. اتصلت بها بعد أسبوعين كان الهاتف مغلقًا ومذيَّلاً برسالةٍ صوتية: «الرجاء ترك الرسالة بعد سماعك الصفارة،» فتهيَّأ لي أنّني أسمع صدى ضحكتها اللعوب من خلف الهاتف

بوسطن